



في الملحة الغنائية الشعبية الـ**كردية الطويلة** (تيلى/ألياً), يروي «العاشق» لحبيته كيف أقنع أخواته السبع الجميلات بالزواج من أخواتها «البشعين القساة»، كي يتمكن مصادرتهم ووصال حبيبته. وإذا يصف مرارة ما عاناه وهو يحاول إقناع أخواته الطيبات بما لم يكن مُقتنعاً به، تتحول تلك التراجيديا سياقاً موازياً ومبايناً لسردية الحُب نفسها. في المسألة السورية ما يطابق ذلك تماماً.

فثمة كثيرون يسعون إلى أن يقنعوا السوريين بأن «ثورتهم» إنما تُعادن «شكل العالم»، وأن هذه المنطقة باللغة الحساسية من العالم، وأن سوريا تُشكل عقدة ومركزًا في هذه المنطقة، وأن لها خواصها وشروطها التي لا تتغير ببساطة، وعلى السوريين أن يقبلوا بهذه الفرضيات والواقع، أيًّا كانت طبيعتها المبادنة للخيارات القيمية «العادلة» التي خرج السوريون لأجلها.

أيًّا أن يتركوا «أحلامهم» ومخيلتهم عن إسقاط نظام العائلة والطبقة الاستبدادية، وبناء دولة مدنية ديموقراطية، ويقبلوا فوق ذلك بفظاعة كُل ما جرى من جرائم، وكأنه شيء عادي وطبيعي وجاء من القربان الذي عليهم بذلك ليتوافقوا مع شكل العالم هذا.

ليس من خارج السياق أن هؤلاء أنفسهم لا يؤمنون بما يسعون إلى أن يقنعوا السوريين به، إذ ينتمون إلى عوالم وطبقات تدعى بالإيمان بحقوق الإنسان والإقرار بالدولة المدنية وشرط العلمنة، ويتحدون من مؤسسات تدعى وثائقها التأسيسية أن

تلك القيم هي الأسس التي قامت عليه ولأجله.

أول هؤلاء، وأكثربهم فاعلية، الوسطاء الإقليميون والدوليون. فعلى رغم وضوح المسألة السورية وشرعية وعدالة وسلامية مطالب السوريين التي قابلها عنف النظام الأرعن، فهؤلاء «الوسطاء» سعوا دائمًا إلى إقناع السوريين عبر مؤسساتهم المعارضة بأن «الواقع هكذا»، والمعيار هو موازين القوى المحضة بين النظام الأمني العسكري ومجموع المُنتفضين العزل.

لم يسع هؤلاء لممارسة دورهم المفترض، بأن يقنعوا العالم بفداحة النظام وقوته، والضغط الحقيقي عليه ليقبل بمقابل شعبه بوصفه الخيار الأقل كلفة والأكثر عدالة وإنسانية. كانت تلك هوية الوسطاء جميًعاً، من مندوبي جامعة الدول العربية إلى المبعوثين الإقليميين والوسطاء الدوليين. وما كانت لغتهم المُجردة وتفاعلهم السلبي سوى جزء من السلوكيات الفعلية للمنظمات والمؤسسات التي ابنتها مهماتهم، جامعة الدول العربية والأمم المتحدة، التي تسعى دائمًا إلى أن تفهم المنطقة بمنطق أنظمة حُكمها، وأن تُشرعن توازنات القوى في العالم بدل التزام معايير أخلاقية والدفع بالتغيير إلى أمام.

ليس أقل منهم، كانت سياسات الدول «الكبُرى» وعلى رأسها الولايات المتحدة. فانسحاب إدارة أوباما من المنطقة عسكريًا وسياسيًّا إنما عنِّي أن يُترك ضُعفاء المنطقة لمنطق الأقوياء، ويكون الدور الأميركي ممحوسًا بمنع «الأسوأ» الذي قد يمس المصالح والحساسيات الأميركية، التي تقلصت إلى «أمن إسرائيل» ومنع انتشار تنظيمات جهادية كداعش.

لم يدفع السوريون ثمناً باهظاً جراء تلك «البراغماتية» فحسب، بل كانوا دوماً ضحايا المسعى الأميركي لدفعهم إلى التطابق مع رؤية واشنطن، إيماناً بعدم القدرة على إسقاط النظام، وتأجيلًا للأمور حتى إتمام الصفقة النووية مع إيران، وقبولاً بـ«حل وسط» وتسليم الملف لروسيا، وليس انتهاء بدفعهم نحو «سُكّ استسلام مُذل». وبالنسبة للولايات المتحدة لا يمكن الحديث عما «يجب أن تفعله» القوى العُظمى، بل على السوريين أن يتفهموا فروض السياسة والخيارات الأميركية الجديدة في المنطقة.

على أن أكثر المُثيرين في هذا السياق طبقة من المُثقفين والمعرفيين والسياسيين السوريين والعرب، الذين يتحدون من أرومات طائفية وولاءات إيديولوجية وموقع وظيفية لا تتوافق مع ما كان السوريون يسعون إليه. وإخفاء تناقضهم الجوهري مع مطالب السوريين، ولخجل الكثرين منهم من إظهار ذلك، كانوا يصرحون بـ«عدالة» ما يُطالب به السوريون، لكنهم على الدوام يسعون إلى إثبات استحالة تتحقق، ويستخدمون كُل قدراتهم للتشكيك بجدارة السوريين وتضليل قُدرات النظام والإيحاء بصلابة مواقف داعميه مُقابل تذبذب مواقف المساندين للشعب السوري، فكأنهم يقولون للسوريين «اتركوا هذا الأمر».